التشكل الكاذب للهوية وأزمات الإنتماء قراءة في رواية حارس التبغ لعلي بدر

The false formation of identity and crises of belonging is a reading in Ali Badr's novel The Tobacco Guard

نعيم عموري[1*] ، علي عبدالوهاب حسن[2]

Naeem Amouri[1], Ali abdel wahab hasan[2]

[1] أستاذ مشارك جامعة شهيد تشمران اهواز (ايران) الكاتب المسؤول : ، n.amouri@scu.ac.ir

[2] جامعة شهيد تشمران اهواز (ايران)

تاريخ الاستلام: 2021/02/23 تاريخ القبول: 2021/04/01 تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص :

ان لعبة الهويات في جوهرها لعبة تخيلات ثقافية وتصورات رمزية فالهوية فردية خالية تعمد إلى فبركتها الجماعات التي فقدت سطوتها وتوهجها بتشتت جذورها الجامعة، عبر اختراع مجموعة سرديات مصطنعة لكي تجمع جماهيرها، وتصنع من خلال تلك السرديات المكثفة إرادة كافية لاسترداد مجدها المفقود، فوجدنا انّ شخصية اليهودي "يوسف سلمان" كانت تنتمي للزمان أكثر من انتمائها لأيّة هوية متداولة فهو لم يكن يهوديا فترك اسرائيل بعد زمن قصير من تهجيره إليها ولم يكن شيعيا رغم تستره بقناع "حيدر سلمان" وزواجه من ابنة تاجر البازار "اسماعيل الطباطبائي"، ولم يكن سنيا رغم أنّ "نادية العمري" استطاعت أن توفر له منفى داخليا يتجاوز اشكاليات الجغرافيا واوصلته لبغداد ثانية، ولم يكن عراقيا ايضا رغم أنّ بغداد كانت هاجسا يحمله في كل منفى، انما هو يتعرق بقوة الى الزمن الجميل الذي عاشه الطفل "يوسف سامي" خاليا من كل أوثان المكان، على أنّ العلاقة المركبة بين إحساس الشخصية بالانتماء للوطن- الزمن – ونبذ الوطن- المكان لها، جعلها تنزوي مجبرة في منطقة التوتر فلا تستطيع فيها أن تكون ذاتها في الواقع بصورة معلنة، ولا تستطيع أيضا تتعايش حينما تكون هي غيرها بإرادتها، فتبتكر فكرة الأقنعة المتعددة رغم أنّها تخاف من التخفي والتزييف، لكن هناك خوف أكبر يجعلها تمارس تلك اللعبة بلذة واتقان، فثمة دائماً كائن خفي يقبع خلف الوجه المعروف. إنّها لعبة تلفيق وافتراضات وتأمل ومعرفة بالتاريخ وخيال مفرط يجد تجلياته وسط التناقضات.

الكلمات المفتاحية: التشكل الكاذب، الهوية، الإنتماء، حارس التبغ، علي بدر.

Abstract :

The game of identities is, in its essence, a game of cultural imaginations and symbolic perceptions. The identity is an empty individual who deliberately fabricated it by groups that lost their power and glow by dispersing their collective roots, by inventing an artificial group of narratives in order to unite their

[*] المؤلف المرسل: نعيم عموري، الإيميل: **n.amouri@scu.ac.ir**

audiences, and through these intense narratives, they create enough will to recover their lost glory. We found that the personality of the Jew is “Yusuf Salman” belonged to the time more than her belonging to any circulating identity, as he was not a Jew, so he left Israel shortly after his emigration to it and he was not a Shiite despite his cover-up with the mask of “Haidar Salman” and his marriage to the daughter of the bazaar merchant, “Ismail AlTabatabai,” and he was not Sunni, although Nadia Al-Omari was able to provide him with an internal exile that exceeds the problems of geography and brought him to Baghdad again, and he was not Iraqi either, even though Baghdad was an obsession that he carried in every exile Rather, he sweats strongly to the beautiful time that the child "Youssef Sami" lived, devoid of all the idols of the place. However, the complex relationship between the character's sense of belonging to the homeland - time - and the abandonment of the homeland - the place for her, made her fall forcing her in a zone of tension in which she could not be herself In fact, in a public way, and she also cannot coexist when she is another one by her own will, so she invents the idea of multiple masks, although she is afraid of concealment and falsification, but there is a greater fear that she makes her play that game with pleasure and mastery, as there is always a hidden object behind the well-known face. It is a game of fabrication, assumptions, contemplation, knowledge of history, and an excessive imagination that finds its manifestations in the midst of contradictions.

***Keywords**: false formation, identity, belonging, Ali Badr, novel:Tobacco Guardian.*

المقدمة :

يعاني الانسان العربي المعاصر أزمة هويات وانتماء تصنف بطابعي العمق والشمولية التي تعود الى تعدد الكيانات والولاءات المحلية والوطنية ، فالإنسان العربي تتجاذبه هويات مختلفة عشائرية، قبلية، مذهبية، ويمكن القول ان ازمة الهويات والانتماء تعد واحدة من اهم المعوقات التي تواجه عملية الاستقرار السياسي والتنموي في المجتمعات العربية. لقد خاض الكثير من الباحثين في موضوع الهوية ومحدداتها والقضايا المثارة حولها وتجاذباتها ، الا ان اغلب البحوث والدراسات التي تناولت اشكالية الهوية وأزمتها لم تقدم حلا حقيقيا لازمة الهوية في المجتمعات التي درستها ، بل يمكن القول انها لم تقدم على الاقل، تصورا او رؤية واقعية للحل، كما يقول مارسل موس عن السوسيولوجيا التي وان لم تقدم حلولا علمية كان يجب عليها، على الاقلان تقدم معنى لفعل عقلاني. اذا لم نعد بحاجة الى مخادعة الذات عند

تشخيص الهوية وازماتها واسبابها، فأزمة الهوية بلغت حدا صارت تهدد الامن الوطني والاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ان ازمة الهوية الوطنية الجامعة كانت سببا في ظهور كثير من الصراعات التي ادت وتؤدي الى انقسامات اجتماعية عميقة، وصراعات اهلية متكرره في اكثر من بلد عربي، التي برزت فيها الهويات الطائفية لتحتل صدارة المشهد اليوم.

تناولت في بحثي التشكل او الشكل الكاذب للهوية وازمة الانتماء ،امراض الهوية، اسباب نكسة الهوية ،والهوية الثقافية تعرف باللغة الإنجليزية بمصطلح (Cultural identity)، وهي مجموعة من الصفات الثقافية التي تميز مجموعة من الأشخاص عن غيرهم، وتعرف أيضاً بأنها منظومة تتكون من العديد من القيم، والعادات، والتقاليد التي تتفق عليها مجموعة من الأفراد، والتي تعكس الثقافة السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه. إنّ الهوية الثقافية من المصطلحات التي تجمع بين علم الاجتماع، والثقافة البشرية والتي تشير إلى كافة الأحداث التي يتأثر فيها الأفراد داخل مجتمعهم، وتصبح جزءاً من ثقافتهم مع مرور الوقت، لذلك تساهم الهوية الثقافية بعكس طبيعة مجتمع ما، وكيفية قبوله، أو رفضه للأفكار، وهذا ما يؤدي إلى تحديد درجة تأثره المرتبطة بالعوامل الخارجية، والتي تعتمد على ثقافات المجتمعات الأخرى.

ما هي عناصر الهوية الثقافية تتكون الهوية الثقافية من العناصر التالية:

- الوطن تعرف الهوية الثقافية الوطن بأنه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، أو المساحة الجغرافية التي يشغلها الفرد في دولة ما، فيصبح الوطن مع الوقت جزءاً من هوية الأفراد، والذين يطلق عليهم مسمى المواطنين؛ لأن الوطن يساهم في تشكيل هويتهم الثقافية بكافة مكوناتها الفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية، وغيرها.
- الأمة تعرف الهوية الثقافية الأمة بأنها التكامل، والتوافق الفكري بين مجموعة من الأفراد الذين يعيشون في وطنٍ ما، وينتمون له انتماءً فكرياً، وعاطفياً، واجتماعياً، ويتفق الأفراد داخل الأمة الواحدة على مجموعة من الأمور الأساسية، والتي ترتبط بطبيعة عادات المجتمع، ومنها: احترام الأديان، وتطبيق الأخلاق، والتواصل بلغةٍ مشتركة.
- الدولة تعرف الهوية الثقافية بأنها الوحدة القانونية بين الوطن، والأمة والتي تحرص على المحافظة عليهما، وتوفير كافة الوسائل اللازمة لحماية الوطن، والأمة من التعرض لأية مخاطر

داخلية، أو خارجية، والعمل على تمثيلهما أمام الدول الأخرى، في كافة المنظمات، والمؤتمرات الدولية.

ما مستويات الهوية الثقافية تتوزع الهوية الثقافية على مجموعة من المستويات، وهي:

- المستوى الفردي يعرف أيضاً باسم الهوية الفردية، وهي التي تشير إلى ثقافة كل فرد من أفراد المجتمع بصفته الشخصية، أي أن الفرد الواحد يعكس الثقافة السائدة في المجتمع الذي يوجد فيه، فالفرد داخل الجماعة الواحدة سواءً كانت عائلة، أو قبيلة، أو جمعية، أو غيرها من الجماعات، يعد عنصراً من العناصر المميزة، والمستقلة والذي يساهم في التأثير في الثقافة السائدة تأثيراً مباشراً، أو غير مباشر.
- المستوى الجماعي يعرف أيضاً باسم الهوية الجماعية، وهي التي ترتبط بتأثير مجموعة من الأفراد الذين يمثلون جماعةً معينة في الهوية الثقافية السائدة في المجتمع الذي يوجدون فيه، فيعتبرون كالأفراد داخل الجماعة الواحدة، وينظر إليهم على أنهم عنصر واحد يتميز بهوية ثقافية مشتركة ترتبط مباشرة بالهوية الثقافية للمجتمع.
- المستوى القومي يعرف أيضاً باسم الهوية الوطنية، وهي التي تجمع بين الهوية الفردية، والهوية الجماعية في مجموعة واحدة تعد المكون الرئيسي للهوية الثقافية التي تشير إلى الأفراد، والجماعات داخل الدولة الواحدة، وتحرص الهوية القومية أيضاً على تعزيز التعايش الاجتماعي بين الأفراد داخل المجتمع الواحد.

التمهيد :

ارتبط قيام الحضارة البشرية بتطور الفكر الانساني وتطورت معارف الانسان للانتقال من حالته البدائية ودخول مرحلة الثقافة والحضارة وتختلف هذه المعارف فيما بينهما اختلافات جذرية واساسية، وينشأ ذلك من عوامل جغرافية وثقافية متعددة اسهمت بشكل رئيس في الوصول الى الثقافة في المرحلة الحالية.وقد ارتبط التطور الانساني بظهور ثقافات وحضارات متباينة في رويتها السياسية والاجتماعية، مما انعكس على المجتمع والامة حيث ظهر تباين في الاطروحات الفكرية لكل تيار من التيارات السياسية التي كانت تتبنى رؤيا سياسية واجتماعية لطبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع، وكان تقارب هذه الدوائر المعرفية واختلافها وتصادمها من

القضايا المهمة في عالم المعرفة.من هنا تتناول هذه الدراسة دراسة أزمة الهوية العربية في ضوء الصراع الفكري بين التيارات الاسلامية والقومية وتحليلها في اطار بناء منظومة القيم العربية في هذه المرحلة، حيث بدأ النظام الاقليمي العربي يتشكل بنجاح ثورات الربيع العربي كما اصطلح على تسميتها.

تشكل ازمة الهوية في العالم العربي احد اكثر المقاربات الفكرية التي اثارت جدلا ونقاشا يعكس اشكالية تطرح العلاقة بين المقاربات الفكرية لمفهوم الهوية وبين الانسان العربي فمن الصعب التشكيك في صينية الصيني او فرنسية الفرنسي او امريكية الامريكي، بالرغم من ان الصين تضم عدداً لا يحصى من القوميات الصغيرة، وان فرنسا تشكلت من مجموعات كبيرة من القوميات التي لم تنصهر تماماً، وان امريكا بالرغم من سيطرة المزيج الاوربي الابيض عليها تؤلف مزيجا من القوميات التي هاجرت اليها، بل هيه امة المهاجرين بامتياز، لكن الامر ليس هكذا مع العروبة، حيث لا يقتصر التشكيك في معناها، بل في وجودها سواء بالنسبة للأوربيين ام الغربيين بشكل تام، وانما يتعدى ذلك غالباً الى عدد كبير من العرب انفسهم.

من هنا تكتسب هذه الدراسة اهميتها من منظور فكري لاحد المواضيع التي يتزايد الجدل في اطار نجاح بعض الثورات العربية وامتداد هذه الثورات الى الكثير من الدول العربية، ضمن ما يمكن تسميته بتحرر الشعوب العربية ورفضها لسياسة الحزب الواحد والتسلط .

كما أن انتشار الكثير من مظاهر العولمة في العالم، أدى إلى انتشار الثقافة الاستهلاكية التي تعتمد المذهب البراكماتي الأمريكي التي أثرت تأثيرا كبيرا في الأجيال الجديدة بشكل خاص، فأصبح الفارق بينها وبين الأجيال التي سبقتها واضحًا للعيان، خصوصًا من حيث المفاهيم والسلوك والتطلعات والعلاقات التي تربط الأفراد بعضهم بعضًا، فأصبح مبدأ المنفعة أساسا في توجهات الفرد، ومن أهم ردود الفعل على هذه الثقافة وغيرها من التوجهات الثقافية، ظهور واستفحال ظاهرة النزعات السلفية بأشكالها المتنوعة في المجتمع العربي والعراقي بشكل خاص ونزوعها الدموي – في العراق بشكل خاص- الذي تجسد في ظاهرة التفخيخ والتفجيرات اليومية التي طالت المدن العراقية دون استثناء إضافة إلى استشراء ظاهرة المليشيات التي تتقنع بالهويات المذهبية، وتمارس القتل والاختطاف وكل أعمال الإرهاب، مما حرف الهوية

الوطنية وجعلها (هوية قاتلة) يستعيض فيها الإنسان (بعنصر ما من الهوية، ويعتبر هذا العنصر، سواء كان دينيا أو قوميا، يختصر او يختزل كل الهوية، بينما الهوية مركبة من عدة عناصر، والعصر الراهن يشهد هذا الاختزال ، ومفهوم الهويات القاتلة هو احد المفاهيم السائدة في عراق ما بعد التغيير، وقد أصبح من الثيم المألوفة المكررة في روايات ما بعد التغيير ..، وقد اتسمت هذه التساؤلات المحيرة عن الهوية في الرواية العراقية بأحداث تسجيلية خطيرة اتضحت فيها فيها عناصر الإقصاء والقتل على الهوية وتضخيم أحداثها، وصولا إلى انقلاب جذري في مفهوم الهوية، يسمح بتمزيقها والهجرة إلى المجهول ،أو إضفاء تساؤلات ساخرة على مكونات الهوية تدينها بالتخلف والثبات على القديم، وتقزيم الشخصية العراقية وانتفاخ الانا المثقفة وتضخيم دورها، كبديل عن الشخصية الواقعية، ويمكن رصد هذا المعنى من خلال قراءة ثقافية جادة وواعية للسرود الروائية التي كتبت بعد التغيير وعنه.ويهمنا أن نستعرض معنى الهوية ومكوناتها (وهل هي مفهوم ثابت، ضيق، مغلق على ذاته ؟أم هو مفهوم منفتح على الآخر بقدر انفتاحه على ذاته؟ وكيف تتكون الخصوصية ؟وهل يهددها الانفتاح على الآخر أم يغنيها؟ هذه الأسئلة وغيرها ستجد إجابات لها في الكتابات الثقافية أولا في حين يجسد السرد الروائي إجابات يمتزج فيها الواقعي والخيالي وهو يحمل وعودا في الإجابة عن مفهوم الهوية ومتغيراته وآفاقه.

وإشكالية هذا التعدد والتنوع في مكونات المجتمع العراقي، – كما يقول الأستاذ إبراهيم الحيدري (هو ظاهرة صحية من الممكن أن تكون عنصر غنى وإبداع ثقافي وروحي واجتماعي إذا ما توحدت في إطار وحدة وهوية وطنية واحدة.) غيران ما جرى في العراق بعد التغيير بإيلاء التعدد الثقافي أساسا للهوية القومية والدينية قد افرز إشكالات كثيرة ومعقدة أهمها اندفاع مكونات كثيرة كالصابئة المندائيين والكلدان والاشوريين والايزيدين اضافة الى الكرد الفيليين والزنوج العراقيين إلى المطالبة بحقوق خاصة تعوضهم عن الاضطهاد والتهميش الذي عانوا منه في العهود السابقة، وتبدو هذه المطالب مشروعة نسبة لما تحقق للقوميات الثانية كالكرد والتركمان لكنها من الناحية العملية ستبدد ثروات البلاد وتشجع الانقسامات والاعتزاز بالهوية الخاصة مقابل الهوية الوطنية التي تبقى معلقة، ولذا فأن الحل الأمثل لصراع الهويات في العراق ومن اجل أن تصبح هذه الهويات ظاهرة صحية فيه ينبغي إقرار قانون المساواة للجميع

دون استثناء في كافة الفرص والوظائف دون تمييز او محاصصة بغيضة جرت علينا الويلات، فاعتبار العراقيين متساوين في الحقوق والواجبات والنزوع إلى تطبيق ذلك بشكل سليم على أساس الشخص المناسب في المكان المناسب سيكرس الهوية الوطنية ويبعد عن هذا الوطن الصراعات الدامية .لقد أنتج الزمن الأوروبي- خاصة- التاريخ، وأنتج رواية تستدعي هذا التاريخ لتبقيه حيا ولتجعل سيطرتها عليه متكررة و متجددة . فماذا عن الزمن العربي بالمقابل ومن ثمة لقد أصبح الاهتمام بالنصوص السردية في الوطن العربي اليوم كبيرا وواسعا، وبالرواية على وجه الخصوص سواء من حيث الكتابة أو الإهتمام النقدي وحين نقول النقد فإننا نقول بشكل أو بآخر القراءة بكل مستوياتها إلى حد جعل بعض النقاد يعتبرونها" ديوان العرب في القرن العشرين" تبدا رواية حارس التبغ بأسلوب بوليسي مثير لاجتذاب القارئ : في الخامس من فبراير من العام 2006 وجدت جثّة الموسيقار العراقي كمال مدحت مرميّة على مقربة من جسر الجمهورية على نهر دجلة، من جهة الرصافة. كان قد عثر على الجثة بعد أقل من شهر تقريبا على اختطافه على يد جماعة مسلحة من محل قريب من منزله في مدينة المنصور.حكي رواية علي بدر قصّة موسيقي يهودي عراقي (كمال مدحت)، قّتل في بغداد في ظروف غامضة عام 2006، وللتأكد من خلفيات اغتياله، أو مصرعه، تنتدب صحيفة (تودي نيوز) الأمريكيّة - التي نشرت نبأ اغتيال الموسيقار- الراوي ، وتكلّفه بالتوجه إلى بغداد، وكتابة ريبورتاج من ألف كلمة، على أن لا يُنشر الريبورتاج باسمه وإنما باسم جون بارو أحد الصحفيين المهمين في الصحيفة .تدور أحداث الرواية في حقبة احتلال العراق، وزمن المقاومة، وحالة الفوضى، والاختطافات، والاغتيالات، والتصفيات، وتحوّل العراق إلى بلد أرامل، ومهاجرين في زمن (الديمقراطيّة)!.

ربما لهذا بدأ علي بدر روايته بهذا الأسلوب الصحفي البسيط والمثير، و.. من ثمّ انتقل إلى شيء من الإدهاش: نشرت الصحف خبر وفاته مثل أي خبر، وبلا تفاصيل، لكن الانعطافة الحقيقية التي حدثت هي حينما نشرت صحيفة التودي نيوز الأمريكيّة خبرا ذكرت فيها أن الموسيقار العراقي كمال مدحت هو يوسف صالح من عائلة قوجان، هاجر إلى (إسرائيل) في العام 1950، في عملية أطلق عليها عزرة ونحميه، أي بعد قرار إسقاط الجنسيّة العراقية عن اليهود ومصادرة أملاكهم.في الصفحة (9) هذه تتزاحم معلومات يوردها الكاتب، تستوقف أي

متابع لنشوء (إسرائيل) وظروف تهجير يهود العراق إلى فلسطين.. للإسهام في انتزاعها من أهلها وطردهم منها، وإحلال مزيد من اليهود بدلاً منهم.لم يهاجر اليهود من العراق لأن الدولة العراقيّة أسقطت الجنسيّة عنهم، ولكن بعد عمليات تفجير دبرتها الحركة الصهيونيّة لبّث الذعر في نفوس اليهود، ودفعهم للهجرة كوسيلة وحيدة لإنقاذ أنفسهم!

يوسف سامي صالح هذا كان متزوجا من فريدة روبين عندما هاجر إلى فلسطين، ولكنه ترك زوجته وراءه لأنه لم يطق العيش في (إسرائيل) فهاجر إلى إيران عن طريق موسكو ..لماذا لم يطق العيش في (إسرائيل)؟ هناك إشارة إلى أن إميل حبيبي ساعده في الهجرة إلى موسكو! الكاتب يريد أن يوحي بأن الموسيقار كان يساريا، أو من حزب راكاح ،من موسكو انتقل إلى طهران باسم حيدر سليمان، حيث تزوّج من ابنة تاجر ثري فولدت له زوجته ابنه حسين ،انتقل إلى بغداد عام 1958، وبقي فيها حتى العام 1980 حيث تمّ تهجيره كونه إيراني الأصل، وأثناء التهجير ماتت زوجته الفارسيّة في طهران عاش لمدة عامين ومن ثمّ توجه إلى دمشق بجواز عراقي مزوّر باسم كمال مدحت، حيث ولدت له زوجته نادية العمري ابنه عمر في بغداد، وكان قد انتحل شخصيّة زوجها الذي مات، وصارحها بالأمر، فقبلت بأن يحّل مكان زوجها الراحل، وأحبته، وتزوجته...

يخبرنا الراوي بأن كمال مدحت كان من أشهر الموسيقيين في الشرق الأوسط، في نهاية الثمانينات ما دام الكاتب يريد إبهار القرّاء، بتضخيم حضور (بطله) فطبيعي أن يتلقّى هذا التعليق الذي سينّفس الأسطورة: لكننا لم نسمع بهذا الموسيقار الشهير في الشرق الأوسط الذي يضّم بلاد العرب، وتركيا، وإيران، والأكراد أيضا، وبقيّة الأقوام التي تعيش في هذا (الوعاء) الجغرافي ،يُنتدب الراوي، وهو صحفي عراقي، من صحيفة التودي نيوز الأمريكيّة للسفر إلى بغداد، لكتابة ريبورتاج بألف كلمة عن الموسيقار المغتال، على أن لا ينشر هذا الريبورتاج باسم الصحفي المنتدب، ولكن باسم أحد المراسلين المهمين في الصحيفة، وهو ما يطلق عليه في العمل الصحفي (البلاك رايتر) من هنا تبدأ مغامرة الراوي البحثيّة عن (الأسطورة)، وما خلفّه وراءه، وهنا التشابه الكبير مع رواية (بريد بغداد).على غلاف رواية (حارس التبغ) يكتب علي بدر: عنوان الرواية مأخوذ من ديوان (دكّان البتغ) لـ(بيسوا) ، حيث تلتبس حياة واحدة بثلاث

شخصيّات مختلفة ، اما رواية حارس التبغ فانها تروي حياة الموسيقار العراقي كمال مدحت ، الذي اختطف في بغداد عام 2006 على خلفية غامضة وتنتمي هذه الرواية الى ادب ما بعد الكولونيالية في تكذيب سرديات الهوية والسرديات الاستعمارية.

من كلمة الغلاف لفت انتباهي ما أراد علي بدر أن يوحي به، وهو موضوع (الهويات).. وبعد أن فرغت من قراءة (حارس التبغ)، سألت نفسي: ما دام المؤلف يقدم (بطله)، وقد أنجب يهوديّا من صلبه (مئير)، وسنيّا باسم (عمر)! ، وشيعيّا (حسين)، فهل يكون برأيه هو الهوية الأولى، وأصل الهويات في منطقة الشرق الأوسط؟! وقد تناولت في هذه الرواية اسس الهوية تعريف الهوية امراض الهوية اسباب نكسة الهوية ولماذا كتب علي بدر هذه الرواية ومن هو الجمهور الذي تتوجّه إليه برسالتها؟ ولماذا لم يختر شخصيّة عراقيّة عربيّة، أو كرديّة، أو آشوريّة، أوكلدانيّة مسيحيّة، ليقدم معاناتها، ومن خلالها معاناة العراق في زمن الاحتلال؟ ربّما لأن أي شخصيّة طبيعيّة لا تناسب أن تكون (قناعا) كيوسف صالح، أي حيدر سليمان، أي كمال مدحت.. مع هشاشة هذا القناع، الذي لا أدري بأي درجة من الرضا والترحيب.

التشكل الكاذب للهوية :

استعرت اصطلاح "التشكل او الشكل الكاذب"- تشبهاً لفكرة الهوية المضطربة – من الفيلسوف الالماني أوسفالد اشبنغلر الذي يؤكد ان هناك ظاهرة مرتبكة في صلة الحضارات بعضها ببعض ويدعوها ظاهرة التشكل التاريخي الكاذب ، وهو يستمد تلك الفكرة من علم المعادن اذ يقول: ترقد داخل طبقة احدى الصخور بلورات معدن، وتحدث في الصخرة شقوق وشروخ ينسرب منها الماء ، ويجوف تدريجيا البلورات خلف مراقدها حيث تخلف، وفي الوقت المناسب، وراءها نخاريب داخل الصخرة، ثم تحدث انفجارات بركانية تفجر الجبل فتتدفق الكتل المصهورة داخل الصخرة وتتصلب وتتبلور بدورها ، لكن هذه الكتل ليست حرة في تبلورها بأشكالها الخاصة، اذ يتوجب عليها ان تملا النخاريب الموجودة داخل الصخرة، وهكذا تنشأ اشكال مشوهة يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي وتبرز حجارة من نوع معين لكنها تظهر في شكل حجارة من نوع اخر غير نوعها ، وهذه الظاهرة يسميها علما التعدين بالتشكل او الشكل الكاذب(1) وقد استفاد اشبنغلر من هذه الظاهرة الطبيعية فاستعارها ليطبقها على تحول الحضارات ، حيث وجد ان هناك حالات مشابهة لها تماما في صلة بعض الحضارات فيما بينها،

او في حال تكوينها وقد اطلق عليها مصطلح التشكل التاريخي الكاذب الذي يصفه بانه تعيين تلك الحالات التي تكون فيها حضارة غربية واقدم زمناً ، متموضعة بصورة واسعة فوق ارض احدى البلدان، حيث تمسي الحضارة الفتية التي ولدت في تربة هذا البلد عاجزة عن تخطف انفاسها نتيجة لتموضع الحضارة الاقدم زمناً منها ، وهذه الحضارة الفتية لا تفشل فقط في تحقيق اشكال تعبيرها الخاصة والنقية ، بل انما تفشل ايضا في تطوير شعورها الخاص بذاتها تطويرا كاملا فكل ما يتدفق من الروح الفتية لهذه الحضارة قد تمت صياغته في قوالب قديمة ، وهكذا يتصلب الشعور الفني داخل انجازات هرمة، وبدلا من ان يشب وينتصب مستندا الى قوته الابداعية الخاصة نراه لا يستطيع غير كراهية القوة الجافة كراهية تتزايد لتصبح مروعة هائلة فظيعة(2)

فبدل من ان تتصاعد بفضل مالها من قدرة ذاتية على النمو بنفسها ، لا ينمو فيها غير الحقد الهائل والكراهية العميقة التي تحملها ضد القوة الاجنبية التي تغمر روحها بطبقة كثيفة من الغطرسة والاستعلاء وتولد لديها شعوراً بالدونية، وغالباً ما يمكن في هذا الحقد وتلك الكراهية اول شرط من شروط تحرير روحها الذي لا يكتمل ويتحقق خلاصها الا بالقضاء على مظاهر التشكل التاريخي الكاذب الذي يتجلى في بعض ميادين الحياة الاجتماعية ، على ان تحرير النفس من حصار التشكل الكاذب لن يتم باستحضار سلفية الامس البعيد التي استنفذت امكاناتها ضمن اطارها التاريخي ، بل عبر اعادة فهم ما هيتها وترتيب عناصرها المكونة على وفق مبادئ موضوعية وليست وجدانية ، واعادة النظر في طاقتها الكامنة والمكبوتة وفك اغلال القيود التي تكبلها .حيث ان الاصرار على محاولات احياء هذا الماضي الميت يعرقل نمو الحاضر الحي بل غالباً ما يستحوذ عليه الى حد يتقمص حياة الحاضر نفسه في احيان كثيرة ، وحيث ان العلاقة بين الماضي والحاضر في الثقافة العربية قائمة على منطق ان الماضي مركز مهيمن، وفاعل لابد منه بسبب الامتدادات الدينية التي تلتصق به فان ذلك الامر جعله قوة مستقلة عن الحاضر بكل تجلياته، ولم يعد مجرد امتداد زماني تابع له، بل اصبح هو الزمان بوصفه قوة دائمة الحضور منافسة للحاضر وتحاول ان تحل محله لو استطاعت لأنه يملك كل ذرائع الاستبدال لذلك تتجلى احدى اشكاليات التشكل التاريخي الكاذب عبر محاولة الهروب الى الوراء بحثاً عن مخرج الحاضر. وقد حاولت بقراءتي لرواية علي بدر حارس التبغ ايجاد الملامح

لذلك التشكل الكاذب للهوية فيها، لان من اولى علامات التشكل او الشكل الكاذب للهوية الشعور بتمزق الهوية وانشطارها ويتمثل ذلك التشكل الكاذب في عدم قدرة الهوية في استيعاب الانسان لصالح الشعور بالانتماء الى جماعة محددة، فالرواية تحكي قصة موسيقي يهودي عراقي قتل في بغداد في العام 2006 مخلفاً عدة اقنعة تقمصها في حياته فبطل الرواية كمال مدحت هو ذاته يوسف سامي صالح الذي تزوج فريدة روبين ثم تم تسفيره معها الى اسرائيل في العام 1950 أي بعد اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود ومصادرة املاكهم ولكونه لا يستطيع العيش في اسرائيل هاجر الى ايران عن طريق موسكو باسم حيدر سليمان وتزوج من ابنة تاجر ايراني مشهور ولم يلبث ان انتقل الى بغداد عام 1958، لكن عمليات تهجير الشيعة في عام 1980 شملته بذريعة كونه ايراني الاصل، وفي طهران عاش لمدة عامين ثم توجه الى دمشق بجواز سفر مزور منتحلاً شخصية كمال مدحت زوج نادية العمري الذي كان قد مات ، فالرواية تشتغل على موضوع الهويات المتصارعة ، حيث ان يوسف سامي انجب اولادا يحملون الهويات الدينية المتقاطعة (يهودياً وسنياً وشيعياً) عبر زيجاته الثلاثة والتي تمثل اصل الهويات في منطقة الشرق الاوسط ، وهي هويات مستعارة لكنها فاعلة في سياقاتها التاريخية، لذا فان الحديث عن هوية مثالية صافية في مجتمع يحمل ارثاً مقيتاً من الكراهية يعد ضرباً من المستحيل.

أسس الهوية :

تعرف الهوية ببساطة بانها الموقف الثقافي الناتج من شعور الانسان بالانتماء الى جماعة ما ، فهي بذلك صلة وجدانية تعبر عن شعور متراكم بجدوى الارتباط الى ذاكرة جمعية محددة تتقاسم معها الرؤية الموحدة تجاه التاريخ كما يتضمنها الشعور بالمصير المشترك الناتج من ضرورات المكان او من المشتركات العقائدية التي تنمط مستويات التفكير عند تلك الجماعة فيصبح مصيرها الروحي والثقافي والفني منتمياً بطريقة سرية لذلك الاصل المفترض، فالجماعة المتخيلة ليست جماعة خيالية بل حقيقية وواقعية وليس فقط لان فعلها وتأثيرها كذلك بل لان تخيلها يجري بأدوات واقعية قائمة، فالناس في هذه الحالة لا يتخيلون شيئا من العدم وبواسطته فتخيلها يحتاج الى اشياء قائمة[(3)]، وتساهم الثقافة في اعطاء الحيوية المنعشة للهوية بتغذيتها بوسائل الاصطفاء الضرورية لتبقيها حية ومتراصة ، كما انها تمدها بوسائل

التجذير الذي يعطيها شعور بالانتماء الى اصل مؤسس نقي واي تجفيف لمنابع الثقافة فان ذلك السبب سيكون مدعاة لانتحار الهوية ، والبحث عن هويات بديلة تملا علاقتنا وصراعنا مع الاخر وتضخ فيه ذاكرة جديدة لكنه يبقى انتماء معوقاً ان لم تتكامل مكوناته الثقافية بسرعة، فالهوية ليست كياناً يعطى دفعة واحدة والى الابد ، انها حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغابر وتشيخ وتعاني من الازمات الوجودية والاستلاب.(4).

ان الصفحات الثلاثة الاولى من رواية علي بدر (حارس التبغ) يقدم فيها الكاتب ملخصاً لكل ما سيرد لاحقاً من احداث تخص تبدلات الانتماء لدى بطلها الرئيس ، فقد وضح في تلك الصفحات الثلاث ان جثة الشخصية الاساسية في روايته ذي الاصول اليهودية التي تنقلت في اكثر من جغرافيا وجدت مرمية قرب نهر دجلة في الخامس من فبراير عام 2006 ويورد ان اسم كمال مدحت الذي تحمله الشخصية ليس اسمها الحقيقي، وانما هي قد تقمصت ثلاث هويات متباعدة: يوسف سامي صالح اليهودي الذي تم تسفيره الى اسرائيل من بلده الاصلي العراق ثم حيدر سامي الشيعي الايراني ثم كمال مدحت السني السوري المولود في الموصل والذي يحمل اسما لا يمكن محو البصمات التركية منه بسهولة(5)، وسط ذلك الصراع المحموم لتشظي الهويات المتقاطعة سنتابع كل تحولاته وسط خصم من الاحداث التاريخية . فيضع الراوي تلك التحولات بموازاة تحولات الشخصية الواردة في ديوان "دكان التبغ" للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا الذي يعثر على نسخة منه في بيت كمال مدحت في بغداد وعليه تعليقات كثيرة .

والمرء لا يختار عناصر هويته بطريقة عشوائية ، وانما تساهم عدة مؤثرات في بلورة شكل وموقف نهائي لها ، اذ تشترك مرجعيات التاريخ والثقافة والدين والجغرافيا والقيم الاجتماعية الخاصة به، في اعطائها الشكل النهائي فتتكون هوية الجماعة اذن عبر عملية تمثل مستمرة لتاريخها ، وبالتالي فان عملية التحويل الثقافي واستحضار الماضي الجمعي وتجارب النجاح والفشل للجماعة ، وسلوك ابطالها النموذجي عوامل تسهم في عملية بناء الهوية الثقافية للجماعة[6]، لذلك وبسبب عدم قدرة الماضي الجمعي النموذجي للجماعة في انتاج امصال وقاية لضمان توازنها الوجداني مع الاخر وامكان رؤيته باطار كوني ، فان الجماعة تحاصر بالاستلاب الامر الذي يجعلها تتكفئ على متخيلات ثقافية سابقة تسوغ لها انفصالها عن الاخر فتحرث من

خلالها التاريخ للبحث عن مبررات تؤجج الكراهية والتعصب ، وتعيد انتاج مسوغات الانفصال والكراهية لتكون سجوناً لوعيها وخياراً ثقافياً لعلاقتها مع الاخر فالتاريخ خزان هائل من الاكاذيب والوقائع والخبرات التي تشحن الذاكرة الاجتماعية بكل ما يجعلها تبدو متفردة ومختلفة اذ يدرك افراد جماعة ما انتمائهم الى على نحو مختلف ، أي انهم يدركون بقوة ما يميزهم عن الاخرين وعندما يكون ذلك الادراك المتباين صعباً او غير ممكن فانه يفسح المجال امام ازمة الهوية الجمعية فالشعور بالاستلاب الثقافي يولد من خلال الشعور بتلاشي السمات الثقافية المميزة تحت تأثير ثقافة اخرى تمارس نوعا من الاكراه والهيمنة(7).

"في رواية حارس التبغ نجد ان الراوي الذي ترسله صحيفة امريكية- بصفته بلاك راوتر- لكتابة ريبورتاج عن القتيل، ثم ينشر لاحقاً باسم احد الصحفيين المعروفين بدلا منه، يكتب عن زيارته لبيت الموسيقار القتيل في المنصور بعد مقتله انه وجد كتابين احدهما مذكرات لعازف الفيولون الفرنسي ستيفان غرابيلي لم يعلق عليه الراوي بشئ رغم ان القتيل كان عازفا معروفا على الة الفيولون الكمان، فيعلق لم اكن اعلم مغزى هذا الديوان بل وضعته في درج مكتبي الى اليوم التالي وفي الصباح بدأت بقراءته، فهالني ما وجدت لقد ادركت ان في الكتاب الكثير من اسرار حياته"(8)، تلك المفاتيح الاساسية التي يطرحها الراوي ستضئ لنا لاحقاً احداث الرواية وصراع الهويات فيها بشكل جلي، اذ يوضح لنا الراوي ان بيسوا يقدم في الديوان ثلاث شخصيات مختلفة تعبر عن ثلاث حالات تقمص وكل شخصية هي وجه من وجوه الشاعر يخترع لها اسماً وحياة وقناعات مختلفة .

امراض الهوية :

تتعرض الهوية لهزات وجودية بنتيجة التفاعل السلبي للإنسان مع تجلياتها الرمزية وهو ما يجعل الانتماء مشوهاً، فالإنسان سعى منذ الازل في تكوين الجماعات لأجل حماية نفسه من متقلبات الحياة فهو في بحث مستمر عن اطار معنوي ينضوي تحته لأجل تعزيز حاجته بحماية ذاته وترصين وجودها عبر دمجها بتصورات ثقافية رمزية تؤصل انتمائها لأخر، وهو انتماء يتكئ عادة على هوامش سردية لما للسرد من قدرة فائقة على الاثراء والتوحيد فيكون ذلك كافياً لا عطائه مغزى وحصانه كافيتان لاستمراره في مسيرته فالهوية على الدوام بنية سردية، لذلك تنشأ صور والوان سردية متعددة لذلك الانتماء تبعاً لا نماط التطور العقلي والمعرفي والوظيفي

للإنسان فظهرت الاسرة ودبجت بتاريخ حافل من تأجيج الحميمية وظهرت العائلة وتأطرات بتاريخ عجيب من التكاتف وهكذا العشيرة والقبيلة، والمدينة والنقابة والطائفة والوطن فكان هنالك في كل تكوين من تلك التكوينات الحاضنة لوجود قواسم رمزية مشتركة مهمتها تمتين اواصر الالفة بين الافراد فهذه القواسم المشتركة تؤلف نقاط جذب ثقافية تؤهل الانسان للالتفاف حول عناوينها الرمزية، فضلا عن ان هنالك قواعد للانتماء في كل مكونة من تلك المكونات الاجتماعية وهنا يجب علينا التنبه الى ان هناك انتماءات اولية يكتسبها الانسان مع ميلاده مثل الانتماء الديني او العشائري، وانتماءات اخرى مكتسبة يختارها الانسان نتيجة الحاجة والتفكير مثل الانتماء النقابي او الايديولوجي ومن مجموع هذه الانتماءات تتكون الهوية" ويرى دوركهايم انه يوجد في داخلنا كائنان احدهما اجتماعي والاخر فردي، اذ يجسد الكائن الاجتماعي انظمة من الافكار والمشاعر والعادات التي تعبر ليس عن شخصيتنا الفردية بل عن الجماعة او الجماعات التي تنتمي اليها وتأخذ الانظمة شكل العقائد الدينية والمعتقدات الاخلاقية والتقاليد القومية او المهنية والآراء الجمعية"[9]، بينما يظل اهتمامات الكائن الفردي الخصوصية والطباع والتجارب الشخصية والانفعالات والذكريات ، على وفق ذلك يمكننا القول ان الهوية لدى الانسان تتألف بالعادة من مجموعة انتماءات متراصة ومتناقضة لكنها تعمل جميعها في ذات الانسان الا انه يولي ادها اعتناقاً خاصاً فيتخذها واجهة لوجوده أي انها تفترض وجود هيئات متعددة ومتبدلة وزائلة ينتمي اليها الافراد لفترات محدودة، وتقدم لهم مصادر مماثلة يديرونها بأسلوب متنوع ومؤقت، وفق هذا التصور يمتلك كل شخص انتماءات عديدة يمكن لها ان تتغير اثناء حياته وترتبط هذه الاشكال بمعتقدات مختلفة عن السابقة[10]، فيرسم من خلال الاختلاف شروط اصالته واحقيته معتمداً في ذلك على قدرات الايدولوجيا فمهمة الايدولوجيا تكمن في انعاش النسيان وتقويته بما يجعل أي حدث يمر في منظومة غاياتها، ومن ثم يصبح التاريخ منتقى بعناية لصالح مصالحها فيما ينتهي الادب والفن الى مجرد موظفين لصالح التمجيد بمأثرها المتراصة في صراع الهويات لا يجد من لم يعترف على عناوين انتمائه سوى الانغماس في اغتراب اليف يترسب في تجاويفه متاهاته، لذلك كتب بطل رواية حارس التبغ من طهران الى زوجته بعد تنقله في اكثر من جغرافيا لم تعطه الامل ولا

الوطن ولا جدوى البقاء هل الحياة هي شي اخر ، غير ان يجد المرء نفسه غريباً ومجهولاً بين الاخرين الغربيين والمجهولين[11].

ان ذاكرة الجماعة حينما تستلم لوباء الايدولوجيا تتحول الى مجرد حاضنة لنفايات التاريخ الرسمي حتى ليصبح الفرد في ظلالها مجرد رقم مهيأ للموت في اية لحظة لأجل امجادها الخاوية، فالايدولوجيا قادرة بمحض شعار رث ان تحول الجزار الى ضحية او العكس، لذلك في نظري ان اولى اعداء الهوية هي الادلجة بعض النظر عن عناوينها وان تقمصت اشكالا دينية او طائفية لأجل ان تمزج الولاء بهوامش مقدسة، لأنها تسلب الانسان اغلى ما اكتسبه في مسيرته، وهي الحرية لقد علمنا القرن العشرون انه لا يوجد عقيدة تحريرية بذاتها، فكلما يمكن ان تنحرف، وكلها يمكن ان تشذ، وكلها ايديها ملطخة بالدماء، الشيوعية والليبرالية والقومية وكل من الديانات الكبرى وحتى العلمانية، لا احد يحتكر التعصب، وبالعكس لا احد يحتكر ما هو انساني لكن الفارق الذي يجعل الهوية بنية متحركة انها تنتمي لما هو ثقافي، وليس ايديولوجي ومتى ما تعكزت الهوية على الايديولوجيا فأنها تستبطن عناصر احتضارها معها .

وهنا علينا ان نقر ان بعض الهويات التي تتفاعل داخل الانسان وجدانية فطرية، ليس للإنسان دخل باختيارها لأنها موروثة، لكنها تتعاظم وتطغى داخل الانسان بفعل انتمائها لما هو حميمي ، وأي تعد عليها يمثل في الحقيقة تعد على الوجود العاطفي للإنسان، ولعل من اهم تلك العناوين الوجدانية: الدين والاسرة والطائفة والعشيرة، وهناك هويات اخرى من نتاج العقل يختارها الانسان ليس بسبب حواشيها الوجدانية وانما بسبب وظيفتها، كالنقابة والحزب والمدينة والوطن احيانا فهي انتماءات تصنع لها المؤسسة الاجتماعية السائدة معتقداتها الفاعلة، لكن لكل نوع من تلك الانواع مرجعية ثقافية تعزز افتراضاتها التي تشد الانسان كي يتقوقع حول تمثلاتها، على ان طغيان انتماء ما على سواه من الانتماءات التي تلتصق بالإنسان امر يجعل الهوية المنتصرة الطاغية تمارس استراتيجية المحو لسواها، حتى نجد ان اهالي محلة التوراة ببغداد في رواية حارس التبغ يتناسون يهودية يوسف سامي صالح رغم ما حفره المخيال الشعبي من صورة كريهة وفارقة لكل ما هو يهودي، ويكتفون بلقب يحمل بصمات اعتناقه

السياسي فـ" **كان الناس في محلته يطلقون عليه اسم الرفيق وذلك لتعلقه الشديد بالحركة الشيوعية"**[12].

أسباب نكسة الهوية :

تبدو الهوية في العادة مفهوما ذهنياً تشكل بواسطة وعي الرادة الجمعية للانا وعلاقاتها، فهي الأنا حينما تتجاوز انويتها وتبدا رحلة الانغماس في ذوات الاخرين، لتصبح قيمة مضافة في وعي الانسان ملكا لسواها، باعتبار ان الوعي ضرورة متقدمة في تشكل الجماعات، لذلك فان أي تعثر في احتواء تلك الانا او فشل الوعي في بلورة ارادة قيمية لا جمة لخيارات التمرد فان النتيجة انها تقع فريسة النكوص السلبي والانتحار الرمزي الجماعي، فيتحول الانسان الى كائن اخر بنتيجة تلك الازمة: ازمة التحول الهوياتي او الفراغ الهوياتي وغالبا ما تكون تلك التجربة صعبة ومؤذية لكنها حتمية، ان هذا الخروج من نسق الجماعة والتحرر منه هو ايضا تحول للذات ، فما بين ترك الهوية القديمة واعتناق اخرى جديدة، تتسرب منطقة اعتقاد رخوة وتتبلور ما هية ثقافية جديدة بخصائص هجينة، ما هيه مقاطعة تنتمي لثقافة مغايرة ومن خلال القطيعة مع الهوية السابقة تنمو منطقة عازلة للمعنى ، منطقة الفراغ الذي تصبح فيه الأنا لاشي بالمعنى الحرفي للكلمة، في تلك المنطقة الفارغة والعازلة تزداد توقعات الانهيار والسقوط للإنسان لكونه يفقد المسوغات النظرية لوجوده "**لذا فان حيدر سلمان(يوسف سامي بعد ان تمقص هوية شيعية) حين ماتت ابنته طاهره في حمى تسفيره الى ايران وقد الحت عليه ان تدفن في وطنها، فلا تستعيد ولو رمزيا ذكرى الاسلاف المسبيين الذين ماتوا بأرض غير وطنهم، وهي اشارة غامضة تحيلنا الى جذور عميقة في ذاكرته الاولى التي لم يتنصل منها في اعماقه وان تظاهر بالابتعاد عنها، لذلك لم تكن له مشاعر بعد ان دفنها بيديه على الحدود، لا يعرف ماذا يقول، انه لم يفقد طاهرة فقط لقد فقد وجوده الخاص، فقد عالمه الشخصي اصبح شخصاً قابلا للمبادلة، يمكن ان يحل أي واحد مكانه لم يعد سوى اصداف فارغة جوفاء ، طاهرة اختفت والعراق اصبح وراءه"**[13].

ان الحرمان هو البوابة التي تجعل الناس تتطرف في تضرتها اتجاه ذاتها واتجاه الاخر ايضاً، فتسدين من التاريخ قيماً اسطورية ترقع بها الحاضر، واذا كان أي انتماء ينغلق ويتصنم في ظل بوادر التنكيل والاقصاء فان كل انتماء ايضاً ينتعش في ظل توهمين: الاول – توهم المماثلة

المتخيلة والتي تعني توقع التناظر الثقافي والاجتماعي والعقائدي لمجموعة من الناس الى ظلال واحدة تجعل ارتباط بعضهم البعض امرا محتما وضرورياً، فحينما يظن احد ما انه منتم الى الاخر يتشابه معه في الاصول التي اسست لا نماط تفكيره فان ذلك التشابه سيكون مسوغا للتماهي معه والانتماء اليه.

الثاني – توهم الاختلاف المتخيل مع الاخر ، لان الاخر احد اسباب تنامي التكتل الوهمي بين الافراد من اجل الوصول الى حالة التماهي التام بين جماعة ما ، التي ترى مصيرها صار مرتبطاً بنوعية محددة من البشر لذلك فان من اهم واجبات النخبة ادامة الاختلاف مع الاخر بوسائل معرفية، فيتحول الى وقود يوحد المجموعة ، وعلى وفق ذلك يمكن النظر الى كثير من المرويات الشفوية التي تمجد الاختلاف بين فئة واخرى ، بوصفه ضرورة تم ابتكارها في فترة من الزمن لغاية محددة ان تكون عاملاً مساعدا من عوامل شحن الانتماء " ان خصال الطبع الثابتة ليست ابدا خاصية فطرية للعقل البشري ، انها نفسها نتاج لظروف خارجية معينة ولاسيما الظروف الاجتماعية التاريخية ، ومن المعروف ان الفرد لا يولد بهذه الخصائص المتكونة للطبع السلالي او تلك، انه ينالها نتيجة لاستيعابها طوال الحياة. او ما يسمى اكتساب الفرد للصفة الاجتماعية"[14] .

وعلى وفق ذلك يمكننا متابعة اسباب نكسة الهوية او التشكل الكاذب لها عبر عدة اوجه :

1- عدم الاكتفاء الثقافي يمنع ارتواء الانسان من معرفة ذاته بسبب جفاف مصادر الارواء الثقافي، حيث ان انفصال المرء عن مصادر التمويل المعرفي الذي يدعم هويته يجعله اسيرا للهوامش الوجدانية المحضة فقط، خاليا من المقومات الثقافية التي ترصن له اعتقاده اذ ان الهوية ترتبط في مجمل تجلياتها بالتاريخ وطريقة روايته ليس لان الانسان بحاجة الى معرفة الحقيقة كما يظن الاول وانما لأنه بحاجة الى معرفة وترتيب ذاته، وتنميط تفكره، تبعا لخصوصية يشعر بوجودها، او انه احد اسبابها لذلك فهو يستمع للتاريخ بفرعيه المعلن والسري: المعلن لأنه حتمي بوصفه جزء من مستلزمات السلطة وانساقها ، والسري لكونه المعين الرئيس للذاكرة الشعبية التي ينتمي اليها بحق. لذلك فان الحواشي الوجدانية لن تلبي له حاجاته في مواجهة الواقع، الذي يجعلها تنهار حتما عند اول مواجهة مع منظومة قيمة اخرى،

فلكي يثبت الانتماء لابد من ضمان مصادر تمويل ثقافية للأفراد تستمد مقوماتها مما هو مقدس في حده الادنى، وتاريخي لكي يبقى الاتباع على تماس مستمر مع الاصل المؤسس ، ويزداد يقين الاصطفاء لديهم واي تلكؤ يصيب الذاكرة الاجتماعية لفئة ما – فيعجز الفرد عن انتاج اسانيد تبرر وجوده من التاريخ – سيجعل علاقة الانتماء لديه هشة ومتذبذبة فالذاكرة الاجتماعية مهمتها ان تكون الحاضن الثقافي للمجموعة ، فتدشن طرق متعددة لتكريس صدق الرواية التاريخية التي تثبت الاصل المؤسس لهم[15].

2- جفاف الرموز لدى الاتباع وعدم قدرتها على استيعاب الحاضر بسبب عدم مواكبتها لتفاصيله الامر الذي يجعلها غير قادرة على ضخ قيم اصطناعية جديدة ، فمهمة الرموز في العادة توريط الوعي بابتكار ظلال من المعنى تجاور الواقع، وهو الامر الذي يجعل الاتباع يبحثون عن قيم رمزية جديدة تستطيع استيعاب الواقع وتقديم تفسيرات مقنعة في حدها الادنى لما يعايشونه، فانتماء الانسان يتكئ دوما الى تصورات رمزية تنبع من نظام متخيل تبتكره الجماعة لكي تقنع الانسان بانضوائه الى اصل موحد للقيم المشتركة التي يتشارك بها مع الاخر المتماثل ، فيكون ذلك كافيا لتحريض روح الاصطفاء والتمايز الضروريتين لدى الافراد فيتعمق لديهم الشعور بالتفرد والاختلاف عن الاخرين من جهة ، ومن جهة اخرى تسوغ للفرد معنى حرب الاخرين له- ان وجدت- وجدوى دفاعه عن وجوده ، فالرموز تتحول الى ايقونات حراسة تحمي الهوية المفارقة لسواها، وهي وان تشابهت كما هو متوقع مع رموز مشابهة لدى شعوب اخرى، لكن الخصوصية المقترنة في العادة بإمكانيات التأويل قادرة على انتاج انزياحات مفارقة لتلك الرموز، ويبتكر الانسان رموزه لكي يرصن وجوده ويضفي بعضا من الجدوى على حواشي انتمائه، لكنه لا يلبث ان يؤقنم تلك الرموز الى بؤرة مركزية للقداسة حين يحاصر بالضعف ومحاولات الالغاء ليس لأنها تستبطن القداسة فعلا وانما لأنه بحاجة الى نقطة ثقافية يلتف حولها، فتكون مركزا لالتقائه وتماهيه بالأخر المشارك له في منظومة القيم ذاتها، وقد لاحظ ادوارد سعيد" ان الجماعات قد تعمد الى ابقاء الذعر الجماعي مستعرا من اجل تعزيز هويتها، وكأنها محاصرة ومعرضة للخطر الامر الذي يتطلب طمس حرية الافراد وتغييب الحس النقدي لديهم، وتأجيل الاسئلة وكل ما يثير الشقاق والفرقة ، والتأكيد بدل ذلك على تقديس الجماعة وتضامن الجميع وصيانة الاجماع العام"[16]. ولعلنا هنا يمكن ان نرى في

الترميز شكلا من اشكال الدفاع عن معاني الوجود فلكي يستوعب الانسان التبدل ويواجه الخراب اذا اعيته المواجهة، فانه يلجا الى الترميز ليجد به حلا سحريا، مطعما بشحنات غيبية وبطولة اصطناعية تقية عار العجز ، اذ ان الانسان حين يقرر اختيار اثر ما ليكون مثالا رمزيا فانه يعمد الى حشو الفراغات الممكنة التي تعمد التاريخ اغفالها او تلك التي قشطتها عنوة السلطات القامعة ، بمختلف انواع التأويلات والاشارات التي تجعل من الرمز متراصا ومتكاملا فالمجتمع في نظر مارسيل موس بترميزه للأشياء "يخدع نفسه على الدوام"(17).

3- الثأر الايديولوجي ، فهوية الانسان نوعان وجدانية فطرية يرثها بالولادة واخرى مكتسبة يتقمصها بالممارسة والاقتناع، لذلك حين يؤمن الفرد بايديولوجية سياسية توفر له اجابات متقاطعة مع ما تقدمه هويته المورثة فانه يعمد الى الثأر والانتقاص منها، في محاولة منه لتبرير انتمائه الجديد، واثبات جدوى اختياره، لكنه من جانب اخر لا يستطيع مبارحة التأثيرات الوجدانية التي تبثها هويته الاولى، تلك الازدواجية تجعل من وعيه مستباحا بتشظيات ايديولوجية ، حتى ليجدن نفسه عبر افتراضاتها ، ومستلقيا بلا شعوره كليا ضمن اشعاعات هويته الام فتجده مؤيدا في كثير من الاحيان لتجليات هي نظر ايديولوجية استعارات اسطورية.

ان عدم خروج الانسان من شرنقة هويته الاولى رغم عدم انصياعه لافتراضاتها تجعل انتماءه معوقاً، وهو خاضعا لمجالات التشكل الكاذب فهو منتم في ان ما، ولعل ذلك احد الاسباب الرئيسية التي تجعل من الولاء معوقا، فتوفر الدافع المركزي والمسوغ المنطقي الذي يجعل الانسان متصالحا مع ذاته وهو يوجه معاول هدمه وانتقامه لأركان هويته المؤسسة فهو بانتقاصه منها يحاول الانتقام لتأثيراتها لكونه مسجون بأقفاصها، فهو لا يملك الارادة الكافية ليعلنها ميتة، فتراه في احيان كثيرا يعود منكسرا اليها للتغذي من رمزيتها وان كان ذلك يتم بطريقة سرية مخاتلة، فالهوية الاولى محمية بسطوة التاريخ بينما تكون الايديولوجية التي اتخذها واجهة لوجوده في العادة محمية بتاريخ من السطوة والقهر لذلك فهو يغادرها خفية الى الاصل كي يرتوي من هوامش النقاء والتحرر الذي يوفره انتماءه القديم[18].

وفي ظني ان انعدام فهم الانسان لعناصر هويته المؤسسة تؤلف احد اسباب جلده لذاته الجمعية وتجاهله المرضي لعدوه المفترض لكونه لا يرى في غير ذاته الجمعية عدوا له، واعتقد ان استلام الافراد لروافدهم الثقافية المؤسسة التي تؤصل الانتماء لديهم وتديمه من مصادر

مناوئة سكولانية وليست من منابعة الاصلية، فتدس فيها ما يجعلها مهلهلة وكسيحة، يؤلف احد الاسباب المهمة التي تجعل صاحب الهوية المرتبكة يجد في رموز وعناصر هويته المؤسسة اعداء محتملين ودائمين له، فيجد بمهاجمتهم والانتقاض منهم نوعا من الثأر العقائدي لهزيمة متخيلة تحاصره ، فضلا عن وجود رواسب سايكلوجية تجعل انتقامه مبرراً، فهو بانتقامه من جذوره الاولى، يقدم فروض الطاعة للجلاد الذي لا يستطيع مغادرته في اعماقه، لا سيما اذا كانت عناصر تلك الهوية تناوئ الجلاد العداء، فهو يهرب من اصوله لان الجلاد يطارده بسببها فيحاول جاهداً افتعال قطيعة معرفية معها، لعل ذلك يرضي مستبداً متخيلاً، يريد له ان يظل بلا اب رمزي فيبعد عنه فرص انعتاقه ويكرس فيه دونيته ، بذلك يتأرجح لديه الانتماء لأنه مستباح بتناقضين فلا يستطيع التحرر من احدهما، وحيث ان الايدولوجيا تميل الى جانب الواقع دائما فأنها تعمد الى محاولة تدجين وقمع الهوية الاولى التي تنتمي حتما لما هو سحري وغيبي وهي بذلك تعتمد التأجيل والايهام بديلا عن الواقع، فتحاول دائما بناء واقع هلامي يعتاش على التوقع والافتراض ويلاصق ما هو موجود، لذلك فأنها ستكون سببا بانفصال عناصر المجتمع مهما كانت ارتباطاتهم السلالية وثيقة وهو ما وجدناه في الصفحات الاخيرة من رواية حارس التبغ، **حيث يعود ابناء يوسف سامي الثلاثة من منافيهم .منير ، ابنه من زوجته الاولى فريدة(اليهودية)، جاء مع القوات الامريكية بصفة ضابط، بعد ان التحق بالمارينز ليكون عراباً للأفكار الديموقراطية ليتحدث الى ابيه بنبرة المتفوق عن نوايا الغرب بجعل العراق جنة الشرق الاوسط، وحسين ابنه من زوجته الايرانية الشيعية جيهان عاد من طهران مع الحركة الاسلامية الشيعية ليتحدث مع ابيه بنبرة التاريخ عن ايمانه العميق بفلسفة التشيع بوصفها حتمية تاريخية، اما عمر، ابنه من زوجته العراقية المقيمة في سوريا نادية العمري، والذي كان في مصر فقد عاد حاملا حقداً لخروج السنة من السلطة ، مستعيراً قناعا تالفا لصورة القومية البالية، بأمل ان تكون حصان طروادة فتعيد له مجده الضائع، كل واحد منهم كان يدافع عن قصة مصنوعة ومفبركة ومزودة بالكثير من العناصر السردية الوهمية ، والتي يعيش كل واحد منهم فيها بوصفها حقيقية[19]"** حينئذ يتذكر كمال مدحت قصيدة بيسوا، أبناؤه هم شخصياته الثلاث ايضا، هم اسماؤه وحالات

تقمصه، لقد كان كل وجه من تلك الوجوه يطابق هوية من هوياته المفترضة وهم على العكس منه، شخصية واحدة منفصمه ومتعددة في ان. انهم لوحة تكعيبية بثلاثة ابعاد لوجه واحد.

1. الهجرة الجغرافية الى بلد جديد مغاير كلياً للوطن الام، لغة وثقافة، فصدمة الحضارة احد الاسباب بالاغتراب فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والانتماء والعمل ، واي مس بأحد تلك العناصر يؤدي بالإنسان للشعور بالاستلاب الذي من مظاهره الشعور بالدونية واللامبالاة والشعور بالضعف والانهزام، وانشطار الذات في تعاملها مع العوامل الثقافية والاجتماعية التي تحيط بها، الامر الذي يجعل المرء عاجزاً وفاقدا لمقومات الاحساس المتكامل بوجوده، مما يجبره على البحث عن هوية مساعدة يمكن بها ان يواري خوفه واغترابه، فالهجرة من الوطن تتيح للإنسان المنكسر الهروب بالذات من وصمة اجتماعية او الابتعاد عن سلطة متسلطة طلبا للحرية او البحث عن مستوى معيشي افضل، تلك الاسباب كانت دوما وراء ترك المواطن لوطنه متجها الى بلدان الحرية والديمقراطية والمساواة والفرص المعيشية والتعليمية الجيدة، في اوروبا والاميركيتين واستراليا، واذا كانت الثقافات المفتوحة او المتجاورة والمتشابهة تسمح لمعتنقيها الاندماج سريعا في مجتمعاتهم الجديدة، واستغلال الهوية الجديدة وهوامشها في الارتقاء بذواتهم للوصول الى اعلى المناصب السياسية والاقتصادية والعلمية ، ملقين خلف ظهورهم الماضي الكئيب حين وجدوا وسيلة للتصالح بين هويتهم الاولى واركان الهوية الجديدة بما يجعل الانتماء متكاملاً ، فان اتباع الثقافات المنغلقة الجامدة تغلب عليهم الاضطرابات الفكرية بعد هجرتهم الى الوطن الجديد وتسيطر عليهم الاوهام والفوبيا من المستقبل ومن الاخر ايضا ، بل نقلوا معهم الى مجتمعاتهم الجديدة كل امراضهم المستعصية ، فلم يتمكنوا من الاندماج الصحيح والاستغلال الامثل للفرص المتاحة امامهم، بل استغلوا هويتهم الجديدة للأضرار بمجتمعاتهم القديمة والحديثة معاً ، سواء عبر التعالي على القيم الاولى، والنظر للهوية الاولى بوصفها مكباً للشر والهزيمة، او من خلال جعل البلد الجديد ساحة لانتقامه التاريخي، " ان الحكمة طريق صاعد، طريق ضيق بين هاويتين ، بين مفهومين حديين، اول هذين المفهومين ، فيما يخص الهجرة، يمكن لكل فرد ان يكتب عليها ما يحلو له، او ارضا بوراً، حيث يمكن لكل فرد ان يستقر بأسلحته وأمتعته دون ان يغير شيئا في تصرفاته، او عاداته، المفهوم الحدي هو الذي يعتبر البلد المضيف ارضا وضعت قوانينها وقيمها ومعتقداتها وخصائصها الثقافية

والانسانية، مرة والى الابد، وليس على المهاجرين الا مواجهتها[20]" فالمواجهة وان كانت رمزية تعني الانتصار والثأر الرمزي لانتهاك الهوية المعبر عنه بانسحاق واغتراب الذات في البلد الجديد.

ان الانسان المغترب عن وطنه وثقافته الاولى سواء كانت اجتماعية ام دينية يعيش صراعا داخليا بين ولاءين : الولاء للوطن الاصلي بكل ما يحمله من توقعات يوتوبية ،وهو ولاء فطري وجداني ، والولاء الوطن البديل بكل ما يحمله من وقائع واقعية، وهو ولاء وظيفي، ويتمرس هذا الشعور تحديدا لدى الجيل الثاني من الابناء، لا سيما بعد ان تجف عواطف الانتماء الاول لديهم لكونهم لم ينغمسوا بأواصر وجدانية معه، فالولاء يجعل الانتماء فاعلا وقويا حينما يتشارك الثقافي والوجداني في بناء الارتباط بين الانسان.

لذلك فان حيدر سامي في حمى التغيير بإيران نهاية السبعينات، وبعد ان حصل على جواز سفر لرجل عراقي ميت في سوريا يمكنه الهجرة الى سوريا، ومنها الى العراق ، خضع لسلطات المتخيل ونزع ذلك القناع الذي حماه طويلا برشاقة ليرتدي قناعا جديدا "حتى شعر ان شخصية حيدر سلمان قد ذابت تماما ، شعر بغربة كبيرة عنها ، كأنها شخصية مفروضة عليه، شعر بانتماء اكبر لشخصيته الجديدة، شخصية كمال مدحت"[21].

4- استيقاظ قيم ولاء جديدة لدى الناس بنتيجة هيمنة واقع جديد افترضته ظروف محددة او نتيجة وقائع تاريخية تحمل الهوية المؤسسة مسؤولية التراجع او الهزيمة التي تصيب المجموعة في ظرف تاريخي ما، فحين تبنى هوية جمعية لمجتمع ما على اساس شمولي لا يحق للناس طموحهم في مواجهة الواقع او يكون سببا في تراجعهم الاجتماعي والعلمي عن ذلك التراجع لذلك يجد بنبذها وتطويقها نوعا من النجاة والظفر بابتكار واقع جديد، فالمسلمون الذين وجدوا في الدولة العثمانية ممثلا للهوية الاسلامية استسلموا بعد هزيمة الدولة العثمانية وتفككها لمهمة تهديم تلك الهوية واعتبارها سببا رئيسيا للتخلف والانكسار، لا سيما بعد استثمار عناوين بديلة للانتماء انبعثت على انقاض تراجع المد الاسلامي بما تمت تسميته المد القومي للأمم، حتى وجدنا معظم المفكرين الاسلاميين الذين كانوا ضمن الماكنة العسكرية والثقافية للدولة الاسلامية العثمانية يتحولون الى قوميين علمانيين يهاجمون ذلك الارث بقوة.

ان الوعي بالهوية المشتركة لا يتأسس على الادعاء الايديولوجي الكاذب بوحدة التاريخ والمصير ، وانما يلزم عن اختيار حر وعن منفعة مشتركة وليس ثمة حاجة واقعية للاتكاء على وهم

الانسجام والتماثل بين المختلفين في المصالح والرؤى للحد من الانقسام وحالة التصدع المجتمعي في السطح والعمق، الا اننا نعتقد بوجوب الاعتراف ان بعض العناوين البديلة للهوية الشمولية بعد انهزامها ، تمتلك قدرة سحرية على طي الاخطاء والعيوب المتوقعة، واستنبات ارادة فانتازية قادرة على بناء استراتيجية جديدة تواجه من خلالها الواقع بالخيال وبالتمني بواسطة الهامش الديماغوجي الذي تختزنه، فمثلا "يتضمن الانتماء الى القومية نوعا من المساواة المفترضة بين البشر في اطار غير متساؤ، فتتحول الى اداة ديمقراطية تدفع نحو الطموح للمساواة، كم قد تتحول الى غطاء ديماغوجي شعبوي لانعدام المساواة"[22] لذلك فأن تأرجح الايديولوجيات الرثة وعدم التزامها يعد امرا طبيعيا عند كمال مدحت فلم يستغرب من تنصل صديقة القومي المتعصب امجد مصطفى من شعاراته المتعفنة بعد ان اصبح دخول الامريكان الى بغداد حقيقة، لذلك كان تبدله فجاً "**فالنبرة القومية اختفت كليا من حديثه، التفويض الالهي لم يعد للامة العربية، كما كان يؤمن قبل سنوات ، سنوات الانتصار والامجاد والعودة الى كتابة التاريخ كما في مدرسة بغداد، اصبح التفويض الالهي للامة الامريكية، اندفاعة عالية للنزعة التكوفيلية وهي الحلم بالديمقراطية وحقوق الانسان**"[23] وهو حلم كان يشاركه فيه كمال مدحت ذاته الا ان حلمه خال من لوثات الايدلوجيا مهما كانت توجهاتها.

النتائج :

- ان اساس الخلاف بين التيارين "القومي" "والاسلامي" هو فكري محض، ولا يجوز الحاق القضايا الوطنية العامة بطبيعة هذا الخلاف. فالهوية الوطنية او القومية مثلا، اصبحت ضحية لهذا الخلاف بين التيارين في المنطقة العربية.
- مسألة الديمقراطية المنشودة في المنطقة، التي ترتبط باليات انتخابية او بمؤسسات دستورية دون الانتباه الى ان اساس المشكلة في الجسم العربي هو في الفكر السائد منذ عقود طويلة بالمجتمعات العربية.
- دور المثقفين هنا ياتي دورهم بقضايا امتهم لتنوير الرأي العام بحقيقة العولمة.
- غياب مفكرين ديمقراطيين متنورين، في مركز العقرا السياسي او في مركز التأثير على اصحاب القرار، قادرين على بلورة رؤية او مشروع يربط ما بين عالمية الفكرة الديمقراطية والخصوصية الاجتماعية الثقافية العربية الاسلامية.

- خضعت مسألة الهوية لتجاذبات متعارضة وخصوصا ما بين الهوية القومية والهوية الاسلامية والهوية الاممية والهوية الوطنية، ولم تجر محاولات جادة للتوفيق بين هذه الهويات.

قائمة المصادر والمراجع:

1- شبنغلر، أوسوالد، **تدهور الحضارة الغربية**، ترجمة احمد الشيباني، لبنان، بيروت، مطبعة دار الحياة، 2005.

2- دوبار، كلود، **ازمة الهويات تفسير تحول**، ترجمة رنده بعث، لبنان، المكتبة الشرقية، (د.ت).

3- بدر، علي، **حارس التبغ**، لبنان، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008

4- اندرسن، بندكت، **الجماعات المتخيلة**، ترجمة ثائر اديب، سوريا، شركة قدمس للنشر والتوزيع، 2009.

5- كاظم، نادر، **خارج الجماعة**، البحرين، مؤسسة الايام للنشر، 2009.

6- الديري، احمد، علي، **خارج الطائفة**، بيروت، لبنان، دار مدراك للايداع والنشر، 2011.

7- بورديو، بيير، **الرمز والسلطة**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، المغرب، دار توبقال، 2007

8- معلوف، امين، **الهويات القاتلة**، ترجمة نبيل محسن، سوريا، دار ورد للطباعة والنشر، 1999.

9- ميكشيللي، اليكس، **الهوية**، ترجمة علي وطفه، سوريا، دار الوسيم للخدمات الطباعية، 1993.

10-عابد، محمد، واخرون، **الموسوعة الفلسفية**، **مصطلح الهوية**، بيروت، معهد الانماء العربي، (د.ت).

11-ابو شاور، رشاد، **لماذا كتبت رواية حارس التبغ**، مقالات ودراسات.

12-البوني، عفيف، **الهوية القومية**، مجلة المستقبل العربي، لبنان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (د.ت).

الهوامش:

[1] - تدهور الحضارة الغربية أوسوالد شبنغلر، ترجمة احمد الشيباني، مطبعة دار الحياة بيروت ص 269-270

[2] - المصدر نفسه ص 270

[3] - الجماعات المتخيلة، بندكت اندرسن، ترجمة ثائر ديب، شركة قدمس للنشر والتوزيع، سوريا ط1في 2009 ص28

[4] - الهوية، اليكس ميكشيللي، ترجمة علي وطفه، دار الوسيم للخدمات الطباعية سوريا ط1 في 1993 ص7

[5] - ينظر رواية حارس التبغ، علي بدر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان ط1 في 2008الصفحات9-10-11

[6] - الهوية، ص67

[7] - نفس المصدر، ص84

[8] - حارس التبغ ص12

[9] - الهوية، ص100

[10] - حارس التبغ ص105

[11] - الهويات القاتلة ، امين معلوف ،ترجمة د. نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر، سوريا ط1 في 1999 ص48

[12] - ينظر حارس التبغ، ص113

[13] - المصدر نفسه، ص234

[14] - الاثنوس والتاريخ، برومليه وبودولني ترجمة طارق معصراني ص79 دار التقدم موسكو1988

[15] - خارج الطائفة، د. علي احمد الديري، دار مدارك للايداع والنشر، بيروت لبنان ط1 في 2011 ص15

[16] - خارج الجماعة ،د. نادر كاظم، مؤسسة الايام للنشر، البحرين ط1 في 2009 ص224

[17] - الرمز والسلطة ببير بورديو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب ط3 في 2007 ص19

[18] - خارج الطائفة ص21

[19] - حارس التبغ ص14 وينظر كذلك ص 326

[20] - الهويات القاتلة، ص39

[21] - حارس التبغ، ص252

[22] - الجماعات المتخيلة، ص27

[23] - حارس التبغ، ص320